بين آدم وحواء

حديث الســـــدرة

للدكتور زكي مبارك

كانت حوّاء تعبثُ من عقل آدم ، وكان آدم تعب من جهل حواء ، وكان جوّ الخلاف ينذر بأن صاعقةً ستنقضّ على رأسيهما بعد حين ... ولذلك الخلاف المزعج تفاصيل فى كلام شيث بن عربانوس ، فما تلك التفاصيل ؟

كانت الأوامر والنواهى تُملَى على آدم وحوّاء (لحكمة يعلمها الله) وكان آدم مع ذلك يدّرع بالصبر الجميل ، فيراعى الحدود بقدر ما يستطيع . أما حوّاء فكانت تتمرد من حين إلى حين ، وإن كان شيث يؤكد أن تمردها لم يكن فى جوهره إلا فنّاً من فنون الدلال .

ويظهر من كلام شيث أن حوّاء لم تكن تدرك أن النعيم قد يزول بالعصيان ، فما دار فى خَلَدها أن فى الوجود مكاناً غير الفردوس يُنفَى إليه العصاة والمتمردون ، ولا جاز فى وهمها أن يُنقَل الإنسان من دار إلى دار بسبب الثورة على الأدب والذوق . وكيف تدرك حواء هذا المعنى وقد وُلدتْ فى جنة دانية القطوف ، ولم تسمع بأخبار الأرض إلا بعد أن قضى الله فى أمرها بما أراد ؟

ويظهر أيضاً من كلام شيث أن آدم كان يخاف الله أشد الخوف ، وكان يدرك بفطرته أن النعيم قد يزول بالعصيان ، وأنّ لا بدّ من تأديب حوّاء إن تمادت فى الضلال .

كان آدم يفهم جيداً أن الله لا يتأذى بجهل الناس ، وإنما يوقع العقاب بالجاهلين لخروجهم على نظام الوجود ، وهو نظام يتأثر باليسير التافه من الانحراف ، لأنه غاية فى الدقة والترتيب ، ولا يحتمل الثبات على الاعوجاج .

وكان آدم يُقسم لئن رأى حواء ليذيقنّها العذاب على ما اعتزمت من قُرب شجرة التين[1] ؛ ولكنه كان يتخاذل حين تُقبل عليه بجسمها الفينان ، وثغرها الرشوف ، فقد كانت ثناياها أحب إليه من حَبّ الرمان ، وكان قدها الرشيق نهاية ما يتصور من روعة الخطرات .

كان آدم يشعر بأن عزيمته تتحلل إلى أوهام حين يرى جسم حواء ، وكان يعجب من أن يكون فى الأوامر والنواهى ما يضع حدوداً لسيطرة تلك الظبية العصماء .

والظاهر أن الجسد الجميل يزيغ البصائر والعقول ، وينقل الرجل من حال إلى أحوال ، ويضيف الحليم إلى طوائف السفهاء ، ولا عاصم للرجل من فتنة الجمال إلا إن حمته وقاية الله .

وكان قدّ حواء من القدود السمهرية ، وكانت لها مِشية تزلزل القلب والوجدان ، وكان لها فى الضوء لون وفى الظل لون ، وكانت ظلال الأهداب توهم أن على خديها زغباً يشبه زغب الخوخ ، وكان غضبها أحلى من الرضا وقطيعتها أطيب من الوصال ، وكان تثنّيها وهى تتخطّر فوق شط الكوثر غريبة الغرائب فى السحر والفتون

وكان آدم أضعف من أن يقاوم حواء ، فقد كان فى فورة الشباب ، والشباب جهل ، وكان أعجز من أن يرجع على نفسه بالتأديب والتهذيب وهو يعاقر الجمال لأول عهده بالوجود ، وأخطر الحب هو الحب الأول ، ولكل آدم فى الدنيا حواء

كان آدم يُقسم ويقسم ثم يقسم لئن رأى حواء ليُقطّعنّها إلى قطع صغيرة حقيرة ثم يقدمها إلى ما فى أرياض الجنة من ثعالب وذئاب ، جزاء بما تقترف من التفكير فى قرب شجرة التين ، ولكنه كان يُصعَق حين تُشرف عليه بقدها المرهف وطرفها القشوان

كان يبدأ بالزجر ، ثم ينتقل إلى العتاب ، ثم ينتهى بالاستسلام ، وذلك مصير الغرماء لأمثال حواء

دعاها مرة إلى أحد الأدغال ليقتلها فى خفية ويستريح ، فمنعها منه جسمها المجدول بأسلاك الكهرباء ، فارتدّ وهو هائم حيران ، وعرف أن الهوى فرضٌ على من وهبه الله نعمة الشعور بعبقرية الجمال

كان آدم رجلاً وكانت حواء امرأة ، وإذا تلاقى الرجل والمرأة فلا مجال لغير الغىّ والضلال ، وقد غوَى آدم بطاعة حواء فقضى الله فى أمره بما سجل التاريخ

(١) اختلفت الأقوال فى «الشجرة» فقال قوم : هى الكرمة ، وقال قوم : هى شجرة التين ، وشيث لا يذكر غير الشجرة الثانية .

جسد حواء صنع به ما صنع . جسد حواء غفر جهل حواء .
جسد حواء فعل بآدم الأفاعيل ، فزيّن له الخضوع لهواها الأثيم

كان آدم يضطرب ويرتعد ، حين تختال أمامه حواء بقدها المؤلف من الأحلام والأهواء ، وكان لا يعرف أين يضع قدميه وهي تساوره بعينين غافلتين عما تصنعان بقلبه المأخوذ ، وعقله الموقوذ ، وهل يبقى لمن يصارع الجمال قلبٌ أو عقل ؟

جسد حواء صنع بآدم ما صنع ، ولكنه تماسكَ في إحدى اللحظات وقد جالسها تحت السِّدرة فدار بينه وبينها ما سجل شيء من هذه الأحاديث :

— أين كنت يا حواء ؟
— وما أنت وهذا السؤال ؟
— من حقي أن أسأل
— وليس من واجبي أن أجيب !
— إذن نفترق ؟
— وإلى أين تذهب ، وللجنة أسوار أمنع من الجبال ؟
— السور الحصين هو أنت يا شقية ، فإذا نجوتُ منك فقد نجوت من جميع المهالك والحتوف
— أنت تنجو مني يا آدم ؟ أنت تنجو مني ؟
« ونظرتْ إليه بعينين تجلاوين تخشع واستكان وهمّ بأشياء »
— كل ما فيك جميل يا حواء ، إلا التفكير في قرب شجرة التين ...
— والموت أهون من الصدوف عن شجرة التين
— هي محرّمة بأمر الله
— وكيف وقد رأيت ظبية تعطو إلى أوراقها منذ لحظات بلا تهيب ولا تخوُّف ولا احتراس ؟
— الظبية حيوان
— ونحن من الحيوان
— ولكن التكاليف تجعلنا أعظم من الحيوان
— وما قيمة التكاليف ؟
— التكاليف لا توجَّه إلا إلى الحيوانات الراقية
— وأنت حيوانٌ راقٍ يا آدم ؟
— لأني في صحبة حواء !

« وهنا وقع اشتباك بين خلقتين فطريتين لم يؤهلهما التهذيب لمراعاة الأدب في النضال والصيال »

— كان الظن أن تعرف ما نعاني من الظمإ في الفردوس
— وماذا نعاني يا حواء ؟
— نعاني الخضوع للأوامر والنواهي ، وتلك أول مرة أفهم فيها المراد من وصف الله بأنه صاحب العزة والجبروت
— وهل يظلمنا الله يا حواء ؟
— انعدام المساواة من صور الإجحاف
— أتريدين أن نكون أشباهاً لما في الجنة من طير وحيوان ؟
— وما المانع من ذلك ؟
— المانع أننا ارتقينا ؛ وللرقيّ تكاليف
— وما حظُّنا من الرقيّ المقيِّد بواجبات وفروض ؟
— هو حظٌّ عظيم ، يا حواء
— وكيف ؟
— لأنه يجعل لنا إرادة ذاتية
— ومعنى ذلك أنه يبيحني أن أصارعك فأصرعك ؟
« وتصارع آدم وحواء فانصرعتْ حواء »
— لا تزعجي من الهزيمة ، أيتها الشقية !
— أحب أن أعرف ماذا تأكل حتى صرت أقوى مني
— طعامنا واحد ، ولكن الروح مختلف
— يظهر أنك تأكل من شجرة التين[1]
— قوتي الحقيقية ترجع إلى الانتهاء عن أكل شجرة التين ، وطاعة الله هي أعظم سلاح يتسلح به الرجال
— والنساء ؟
— الطاعة قوة ينتفع بها جميع الخلائق ، حتى الشجر والنبات
— نحن إذاً خُلقنا للمتاعب ، فالطاعة لا تتم إلا بجهاد عنيف
— الجهاد الصادق رزقٌ نفيس ، يا حواء ، ولا يكون إلا بتوفيق ، فهو يستحق الشكران
— أتريد أن أجاهد نفسي فأبتعد عن شجرة التين ؟
— ليتك تفعلين !
— إسمع يا آدم ، فمنذي فتوى تنفعك

(١) في هامش الكتاب عبارة تفيد أن حواء كانت تتوهم أن آدم يأكل خفية من شجرة التين وأن ذلك سبب قوته العاتية .

— أنت تُفتين يا حواء ؟ !

— دع اللجاجة ثم اسمع ... حدثتنى الحية أن النهى عن شجرة التين نهىُ تنزيه لا نهىُ تحريم

— وإذن ؟

— وإذن يجوز قرب الشجرة بلا تعرض لغضب الله ، وإن تعرضنا للعتاب[1]

— إسمعي يا حواء واعقلي ... أنا لا أعرف الفرق بين نهى التنزيه ونهي التحريم . إنما أعرف أن الله نهى عن الشجرة ، وأعرف أن الطاعة واجبة ، وأنا أخشى عواقب العصيان

— قلت لك إن الحية حدثتنى ...

— أنت فى نعيم يحتاج إلى حراسة ، فاحترسى من الدسائس يا شقية !

— كل شىء جائز ، إلا أن تكون فى الجنة دسائس ، فهذب كلامك يا آدم !

— الفسيسة لا تُلاحقُ غير السعداء بالعيش الطيب والمواهب السامية . وستعرفين يا حواء صدق ما أقول إن استمعت كلام تلك الرقطاء

— قلت لك إن قرب الشجرة لن يعرّضنا لغضب الله

— ولا يعرضنا للعتاب ؟

— عواقب العتاب هينة ، وهو فى الأغلب يتوج بالإعتاب

— المهم فى نظرى أن نقف حيث وقفتنا الإرادة الربانية ، بلا تخريج ولا تأويل ، فكل خروج على الطاعة يترك فى القلب حفرة ، والحفرة قد تتحول إلى هاوية ، وإذا تذوق المرء أو المرأة طعم الجموح فعلى الأخلاق العفاء

— أنا لا أفهم معنى النهى عن شجرة التين ، ولها ثمر مأكول

— من حق الله أن ينهى عن الطيبات

— لأى غرض ؟

— ليختبر قدرتنا على ضبط النفس ، فلا قيمة لترك الأشياء الكريهة ، وإنما القيمة فى ترك الأشياء الشهية حين يوجّه إليها النهى ، ولو عن طريق التنزيه ، كما أفتت الحية الباغية

— لا تذكر الحية بسوء فهى صديقتى

— آفة الآفات أن تكون للمرأة صديقات !

— هل يغيظك أن يكون لى فى الجنة رفيقة أسكن إليها من وقت إلى وقت ؟ أنت إذن لا تحبنى

— أحبك حباً لا يطاق ، ولهذا الحب عواقب ستعلمين أنباءها بعد حين !

— قبلنى إن كنت تحبنى

— ستقبّلك الحية فهى أقرب إليك منى !

« وفى تلك اللحظة سُمع فحيح هو دعوة الحية فجرت إليها حواء ، وتركت آدم لصارعة ما فى صدره من آراء وأهواء »

فماذا قال آدم لضميره وهو يحاوره تحت السدرة بعد انصراف حواء ؟

من كلام شيث نفهم أن آدم زُلزل بعد ذلك الحوار ، فقد تأهبت نفسه لمناقشة الأوامر والنواهى ، وصح عنده أن لكل مسألة وجهين ، وأن من حقه كمخلوق مفكر أن يدرس مايعرض لذهنه من حقائق وأباطيل

بدا له أولاً أن الطاعة أفضل ، وأن القيام بالتخريج والتأويل قد يكون من نزغات الشياطين ؛ ثم رجح فرجح أن النهى قد يكون ضرباً من الإغراء ، فليس بمعقول أن تكون ثمرة التين من الخبائث وهى فيما يظهر طيبة المذاق

والتفت مرة ثالثة فرأى من الحمق أن يخالف الرجل عن أمر الله من أجل امرأة

ثم عاد فرأى أن تلك المرأة هى رفيقه الأول والأخير فى الفردوس ، فما ارتاحت نفسه لرؤية الأشجار والأزهار إلا وهو مأهول الروح بهوى حواء

هى امرأة لا تخلو من هَوج وطيش وسخف ، ولكنها من ذوات المعانى ، فقد كانت تعرف كيف تصيره جذوة من الصبوة حين تشاء ، وكان آدم لا يتمتع بإشراق الفكر إلا فى لحظات الصبوات

(١) لم نر هذا الحكلام فى غير كتاب شيث

ومن عجيب أمره أنه كان يتمثلها حين تغيب ، فقد كانت ذاكرته تعي الأصوات والألوان والحركات إلى الحد الذي يسمح بأن يعانق حواء وبينه وبينها فراسخ وأميال

ولكن . . . ولكن الله نهاه عن الشجرة ، فماذا يصنع ؟ توجه إلى الله بهذا الدعاء :

« يا خالق الكوثر ، ويا فاطر الأعناب والنخيل ، بك أستجير من ظُلم الجمال !

يا مبدع العيون الكحيلة ، والخدود الأسيلة ، بك أستغيث من سحر الفُتُون !

أنت سوّيتني بيديك من جسد وروح ، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك ، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يُذهبن السيئات ؟

إن كنت ترى أن شجرة التين شجرة مسمومة فاصرف عنها حواء ، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء ؛ ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء

وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك فجرّد حواء من سحرها الفتّان لأملك من أمرى ما لا أملك ، ولأستطيع الصبر عن ثمرها الرشوف ، فأنت يا مولاى تعلم أني بها من الهائمين

أنا عبدُك وحواء أمَتُك ، فاقض في أمرنا بما تشاء ، يا أحكم الحاكمين »

وانتظر آدم أن يغيّر الله ما بنفسه بعد هذا الدعاء الصادق ، ولكن الأقدار سكتت عنه فظل مخلوقاً من جسد وروح ، أو من طين وماء

وفي لحظة من لحظات الضجر عزم على المعصية ليعرف مكانه من الوجود

في تلك اللحظة ظهرت حواء ، فهتف :

— إلى شجرة التين ، يا حواء !

— هل غيّرت رأيك ، يا آدم ؟

— بعض الشيء !

— أنت إذن تحبني ؟

— ومن أجل هذا الحب أتعرّض لمكاره وخطوب ، فقلبي يحدثني بأننا مقبلون على بلاء !

— لا تحزن فأنا معك

— من موجبات الحزن أنك معي ، يا حمقاء !

فكيف انتهت بهما الأمور تحت شجرة التين ؟

(الحديث شجون)

زكي مبارك

وزارة المعارف العمومية

إدارة التوريدات

المناقصات العامة

إعلان مناقصة

تقدم العطاءات بعنوان حضرة صاحب العزة سكرتير عام وزارة المعارف العمومية بشارع الفلكي بمصر بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بمعرفة مقدميها في داخل الصندوق المخصص لذلك في إدارة المخزونات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٢ عن توريد الصدد اللازمة لأقسام النسيج بالمدارس الصناعية ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة المذكورة من إدارة التوريدات بشارع الفلكي بمصر نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم .

٩٠٨٣